مجلة (لغة – كلام) تصدر عن مخبر اللغة والتواصل- جامعة غليزان / الجزائر
ISSN : 2437-0746 / EISSN: 2600-6308
رقم الإيداع: 2015 - 3412
مصنفة ج : قرار 1432 بتاريخ 2019/08/13
http://www.asjp.cerist.dz/en/PresentationRevue/176
المجلد 07/ العدد: 02 مارس (2021) - ص 553- 563

وحدة القصيدة الجاهلية بين رواية الشعر ونثر المنظوم- نماذج مختارة من شعر امرئ القيس-

The unity of the pre-Islamic poem between Oral narration of poetry and the prose system from poetry – Selected samples of poetry from Imru 'al- Qais-

موساوي عمار[1] خثير عيسى[2]
[1] Moussaouiomar2013@gmail.com [2]aissa22khatir@gmail.com
مخبر الخطاب التواصلي الجزائري الحديث
المركز الجامعي بلحاج بوشعيب، عين تموشنت/ الجزائر

تاريخ الاستلام: 2020/06/26 تاريخ القبول: 2020/09/19 تاريخ النشر: 2021/03/15

ملخص البحث

استقطبت قضية الوحدة في القصيدة الجاهلية اهتمامات الدارسين المحدثين، فانكبوا على تتبعها ضمن موضوعات كثيرة على غرار رواية الشعر ونثر المنظوم

ولأجل ذلك تحاول هذه الورقة البحثية أن تقف عند مآلات الوحدة في القصيدة الجاهلية بين رواية الشعر ونثر المنظوم، ومدى مساهمتهما في فرض منطق الوحدة تارة والتفكك تارة أخرى، لنماذج مختارة من شعر امرئ القيس،

الكلمات المفتاحية : الوحدة، التفكك، القصيدة الجاهلية، رواية الشعر، النثر.

ABSTRACT:

The issue of unity in the pre-Islamic poem inspired the interests of researchers, so they focused on following them on many topics, including the narration of poetry and the prose system from poetry.

Therefore, this research paper attempts to investigate the unity in the pre-Islamic poem between the narration of poetry and the prose system from poetry, and the extent to which each of them contributes in imposing the logic of unity at one side and decomposing it at another, Within Selected samples of poetry from Imru 'al- Qais.

Keywords: Unity, disintegration، Pre-Islamic Poem, Poetry Narration, Prose

[1]- المؤلف المرسل : موساوي عمار

1. مقدمة:

على الرغم من الزمن البعيد الذي يفصلنا عن القصيدة الجاهلية لاتزال موضوعاتها العديدة تستلهم حس الباحثين، على غرار قضية الوحدة التي استأثرت بنصيب كبير من البحث، ما عزَّزَ الاعتقاد أنّه ثمة تقصير في جهود البحث عن العلاقات الكبرى التي تشُدُّ القصيدة باعتبارها كُلاً لا يتجزأ، نتيجة إسراف النقاد القدامى الغوص في المعاني وتتبع الأغراض ضمن البيت الواحد، والبحث عن أغزل بيت، وأمدح بيت، وأهجى بيت، فارتبطت القصيدة بحركة رواية كثيفة، ساهم فيها الراوي بنقل لغتها من إطار زمن إبداعها، فسار بها عبر أزمنة عديدة، كانت أن مارست فيها القصيدة تحولا مسَّ وحدتها، ما جعلها محل مساءلة وشك وريب واتهام، فتأرجحت وحدة القصيدة الجاهلية بين رواية الشعر الجاهلي وفكرة حل المنظوم منه بغية تسهيل القبض عليه وفهم مراميه وتبيُّن وحدته.

ولأجل ذلك تحاول هذه الورقة البحثية أن تقف عند مآلات الوحدة في القصيدة الجاهلية بين رواية الشعر ونثر المنظوم. من خلال توخي إجابات للأسئلة التالية: ما تأثيرات رواية الشعر على وحدة القصيدة الجاهلية؟ وهل في تذبذب بعض الروايات ما يبرر الشك ؟ وما مصير الوحدة في قصيدة تعاورها الشكوك؟ وهل في ادعاء نثر المنظوم من الشعر الجاهلي لفهمه ما يُبرره؟ وكيف خدم المنثور من الشعر قضية الوحدة في القصيدة الجاهلية؟ وللإجابة عن هذه الأسئلة وغيرها، قسمنا البحث قسمين: قسم أول تتبعنا فيه قضية الوحدة بين الرواية والشك، وقسم ثان تضمن مآلات الوحدة في ثنايا المنثور من الشعر، فخاتمة أوردنا فيها ما خلصنا إليه من نتائج البحث.

2. وحدة القصيدة بين الرواية والشك:

إنَّ القصيدة العربية الجاهلية وليدة مخاض عسير أرسى دعائمه نظام أوجب قانونا يحكم الأفراد وإبداعاتهم، بوجود اللغة كظاهرة إنسانية بمختلف أشكالها، "وبما أنّ النظم كان شكلا من أشكال اللغة تقليديا ومقننا بدقة، فإنّ القصيدة كان لها لون من الوجود القانوني غير قابل للمعارضة، فقد كان يُعدُ قصيدة ما وافق قواعد النظم، ونثرا ما لم يوافق هذه القواعد"[1]، باعتبار الوجود القانوني للقصيدة نابعا من فكرة نظم الشعر الذي أكسب القصيدة نفسها صفة الشخص المعنوي كما يُعرّفه العرف القانوني، ومتى اكتسى الشخص تلك الصفة كان أهلا للممارسات التعاملية التعاقدية، فكانت بذلك القصيدة عقدا يجمع طرفين أولهما المبدع أو الشاعر، وثانيهما المتلقي السامع أو الراوي.

والدارس لتاريخ العرب القدامى وأشعارهم، يجد أن عنايتهم بالشعر أخذت اهتماما كبيرا "فقد كان الشعر في الجاهلية عند العرب ديوان علمهم ومنتهى حكمهم به يأخذون وإليه يصيرون"[2]. لذلك رافقته رواية كبيرة أخذ فيها الرُوّاة على عاتقهم مهمة حفظ واستظهار آلاف القصائد، فساروا بها

عبر أزمنة كثيرة، ويسجل التاريخ أنّه" كان من عادة الشعراء الجاهليين اتخاذ رواة لهم، وظيفتهم تشبه وظيفة المستشار من جهة والسكرتير العلمي، فالراوي ملازم للشاعر في حلّه وترحاله، أفراحه وأتراحه، يُدوّن ما يسمع ويحفظ ما يدون ويُقفّي للشاعر ويذكّر"[3]، كلها محاولات تدل مشاركة الراوي الشاعر قصيدته، ما يدل أنّه كان يتدخل بقصد أو بغيره في ضبط هذه القصائد،على نحو ما نرى في تعليق الأصمعي(ت216ه) على البيت التالي لامرئ القيس: (مِخشٍ مِجَشٍ مقبلٍ مُدبِرٍ مَعًا كتيس ظَبَّاءِ الحُلبِ الغَدَوان) ، بالقول: قال: أبو عمرو بن العلاء لو كنت قارئا هذا الحرف لقرأته(العدوان) من العدو، أحسبه أراد فتح العين"[4]

سبيل أراده الرّواةُ لتقويم الروايات نفسها، وإن توخت مبدأ الصدق فلا ريب أن يساور بعضها سلطان الشك.

1.2 رواية الشعر الجاهلي:

لم يجد العربي قديما سبيلا لشيوع هذا الفن الشعري، غير سبيل الرواية كونها"كانت هي الأداة الطليعة لنشره وذيوعه، وكانت هناك طبقة تحترفها احترافا هي طبقة الشعراء أنفسهم فقد كان من يريد نظم الشعر وصوغه يُلزم شاعرا يروي عنه شعره، ومازال يروي له ولغيره حتى ينفتقَ لسانه ويسير عليه ينبوع الشعر والفن"[5]: وأمام نشوة هذه التجربة قد يتفرد الشاعر الراوي إلى احتكارٍ بعض أصول تجربة المروي له، والتفرد بها، وربّما إخفائها تحت سلطان النزعة الذاتية التي قد تخالجه في لحظة ما، وغير مستبعد أن يتنكر شاعر راوي من ذكر بعض الأبيات فيحتفظ بها أو بمعناها، علّها تكون له زادا عند تجربة لاحقة، إذ "لم يخلِّ بعض الروّاة من التلهي بالدعاوي العريضة في نسبة بعض الأشعار إلى أشخاص، يقف العقل حائلا دون إقرارها"[6]، ما يفسر تباينا في عدد الأبيات في النص الشعري الواحد المتعدد الرواية.. فقد أحصى مثلا المحقق حسن السندوبي في شرحه لديوان امرئ القيس- نظير اعتماده على مجموعة رواة كالاصمعي وأبي عمر الشيباني وحمادة الراوية والمفضل الضبي- إثنين وتسعين بيتا لمعلقته الشهيرة، ولم يتوانى ليعنون أحد فصول شرح الديوان بـ : عبث الروّاة بالشعر الجاهلي، ويحصي الزوزني(ت486ه) في شرحه للمعلقات السبع واحدا وثمانين بيتا لمعلقة امرئ القيس، ناهيك عن اختلاف بعض الالفاظ في ثنايا الشرحين فمثلا: يورد السندوبي قول امرئ القيس:

"قِفَا نَبكِي مِنْ ذِكرَى حَبيبٍ ومَنزِلِ بِسَقْطِ اللِّوَى بَيْنَ الدَّخُولِ فحومل (1)

فتوضح فالمقراة لم يعف رسمها لما نسجتها من جنوب وشمأل (02)

رخاءَ تَسِحُ الرِيحُ في جَنَبَاتِها كَسَاهَا الصَبَا سحقَ المُلاءِ المُذيّلِ (3)

تَرَى بَعْرَ الصِيرَانِ فِي عَرَصَاتِها وَقِيعَانِها كَأنّهُ حبُ فُلفُلِ (4)"[7]

في حين يستغني الزوزني عن البيت الثالث الذي أورده السندوبي ويغير لفظة (الصعران) في البيت الرابع بلفظة (الآرام) كما يلي: "تَرَى بَعْرَ الآرَامِ فِي عَرَصَاتِها وَقِيعَانِها كَأَنّهُ حبُ فُلفُلِ"[8]

ولنسميه وثبا سلسا يفتح المجال لتصور أمور كثيرة هذا من جهة، ومن جهة أخرى يبقى القارئ الخبير، المتأمل، الفاحص لهذه المتون الشعرية، وإن تعددت الوثبات بين أبياتها يحس بتلك الجمالية والحس الإبداعي الذي تميّز به الشاعر الجاهلي،حيث "أنّ الانعطاف من جهة إلى أخرى أو غرض لآخر ،لا يخلو أن يكون مقصودا أولا،فيذكر الغرض الأول لأن يستدرج منه إلى الثاني، وتجعل مآخذ الكلام في الغرض الأول صالحة مهيأة لأن يقع بعدها الغرض الثاني موقعا لطيفا"[9] يضع الشاعر موضع المخاطِب لقارئه بالقول: قُمْ ،زِدْ ،احذفْ ،قَدِّمْ وأَخرْ، ولن تغادر الجمالية قصيدتنا، ذلك" أنّ القصيدة العربية كانت مجموعة من المشاهد المتجاورة التي يمكن تبديل موقعها بدون أن يختل البناء العام؛ لأن هذه المشاهد متزامنة، أي أنّها حادثة معا وتُشاهَد معا"[10]، ما يجعل من الأمكنة وان تعددت مؤطرة بزمن ثابت، ناهيك "أنّه يجب أن ندرك أن المعلقة قد لا تكون كُتبت في زمن واحد، بل قد لا تكون قصيدة واحدة، بل مجموعة من المقطوعات موحدة الروي، جمعها الرُوّاة بعد ذلك في قصيدة واحدة"[11]؛ ومهما يكن نصيب هذا التعدد، فقد عكس تنوعا لأمكنة مختلفة ضمن أزمنة متباينة.

وإن لحِقت بالرُّواة تهم التزوير والنحل والسرقة، تبقى رواية الشعر صاحبة الفضل الكبير في شيوع الشعر العربي القديم، وخاصة "أنَّ النهر الكبير الذي فاض به الشعر الجاهلي إنّما هو الرواية الشفوية، والتي ظلت أزمانا متتالية في الإسلام"[12]؛ ومردُ تفوقها في تلك المرحلة راجع لطبيعة الرواية نفسها، ما جعل القليل من مبتدعها يحظى بشرف التفرد بصنيعها، فقد"كان يمتلك الرُوّاة قدرة عجائبية على الحفظ والاستظهار تشبه الخرافة، فالراوي يحفظ يحفظ الشعر وفق حالات متعددة : الحالة الأولى التي شهدت ميلاد النص، والثانية التي شهدت تعديله، والثالثة التي حذف فيها الشاعر وأضاف"[13]، ذلك أنّه كان يُساير القصيدة من وقت إنتاجها فيتلقاها سماعا، ويقبل على حفظها، وتعديل ما سقط منها، وتلك تجربة ليست باليسيرة متى حاكت طاقة عقل الانسان المحمول على الخطأ والنسيان.

ورغم ذلك كلّه فقد توخت الذاكرة البشرية الأمانة الى حد كبير، للحفاظ وحفظ هذا الموروث الشعري وآية ذلك: "كثرة الشعر الذي وصل إلينا وقلة النثر، لأنَّ الذاكرة بطبيعتها قادرة على الإمساك بالشعر دون النثر، نتيجة احتفاظها بنصوص شعرية سبقت ظهور الإسلام بقرنين وإهمالها لشعر يزيد عن عشرين قرنا"[14]،ورغم ذلك ظلت رواية الشعر علما له أهله ومذهبه ومنهجه "وكأننا إزاء مدرسة من الشعراء الرُوَّاة، تتسلسل في طبقات أو حلقات، وكل حلقة تأخذ عن سابقتها وتُسلم إلى لاحقتها"[15]؛ ما يدل على حرص كبير أولاه هؤلاء للحفاظ على سيرورة هذه الحلقة التعليمية

المتواترة، كأن يُلزم كل شاعر أحدا من أهله أو أبناء قبيلته لرواية الشعر عنه، ومن خلال ذلك تلقينه أصول النظم وقول الشعر، "فطرفة يروي للمرقش الأصغر عمّه ويأخذ عنه، ويروي هذا عن عمّه المرقش الأكبر ويحتذي على شعره، وأيضا فإنّ طرفة كان يروي عن خاله المتلمس"[16]؛ وهذا ما يمكن حملُه على أخذ الشاعر على عاتقه مهمة تلقين علم الرواية لأهله من الشعراء المبتدئين.

لكن بالمقابل تبقى صلات أخرى جامعة بين الشعراء ورواة آخرين، نتيجة عادة أو طبع أو صنعة، بعيدا عن القرابة والأهل "كأن يجمع الشعراء سلوكا في الحياة،كالصعاليك أو الفرسان فيروي بعضهم لبعض، ويأخذ بعضهم عن بعض، على نحو ما نلاحظ عند تأبط شرا والشنفرى"[17]، ما يفسر وجود تشابه في التقاليد الفنية بينهم نتيجة هذه العلاقات، بل:" لو لم يروي لنا الرُواة هذه الصلات الجامعة أو الرابطة بين الشعراء الجاهليين، لحدسناها حدسا من اتفاقهم على تقاليد فنية واحدة "[18]، لأ سلافهم القدامى بعدما دأبوا على إخضاع القصيدة العربية القديمة لتقاليد فنية ثابتة ومتشابهة إلى حد كبير، تدل على فضل علم الرواية في إرساء هذه المعالم الفنية المتمخضة عن إسهامات الراوي بقصد وبدونه في نظم، وترتيب، وإعداد، وتعديل ما يمكن أن يكون قد سقط من الشاعر نفسه، أمر كان أن وضع الشعر الجاهلي في خانة الاتهام والشك والرّيب، نظير ما أحدثته الرواية من تأثيرات على البنية الفنية للقصيدة القديمة.

2.2 الشك في الشعر الجاهلي:

الشائع أنه متى كان هناك خبر فإنه يحتمل الصدق أو الكذب، ولما كانت القصيدة العربية القديمة محمولة على جملة أخبار حاول الشاعر أن يُطلعَ قارئه عليها، فإنّ هذه الأخبار نفسها محمولة على الصدق أو الكذب، لكن حدود تعاملنا مع أخبار الشاعر ضمن قصيدته ستتجاوز الشاعر لتقف على رواية الشعر، وما أبتُليت به في مرحلة من الشكوك والادعاءات وصلت حدّ رفضِ وردِّ جزء كبير منها عندما"بالغ المثقفون العرب في استثمار آليات الشك في العصر الحديث، فلا يوجد في زعمهم امرئ القيس ولا عنترة ولا ثمّة معلقات ولا ولا...وصبَّ البعض جامَّ غضبهم على مدونات الشعر الجاهلي"[19]، من منطق الشك المرتبط بالرؤية العقلية، التي تستند لسلطان العقل في إثبات الوجود، وخاصة بعد مطالعتهم لأحوال العرب ومحاورات الشعراء ورُوّاتهم في الحلِّ والترحال.

ويعدُّ طه حسين من السبّاقين للشك في الشعر الجاهلي وفي ذلك يقول :"إني شككت في قيمة الشعر الجاهلي وألححت في الشك ...ذلك انّ الكثرة المطلقة مما نسميه شعرا جاهليا ليست من الجاهلية في شيء، وإنّما هي منتحلة مختلفة بعد ظهور الإسلام"[20]؛ وفي هذا يقف طه حسين موقفا واضحا وصريحا من الشعر الجاهلي، وصل حدّ نفيه، بل وأوجب على الباحث:"أن يتجرد من كل شيء كان يعلمه من قبل، وأن يستقبل موضوعه خالي الذهن مما قيل فيه خلوا تاما...فلنصطنع هذا المنهج حين نريد أن نتناول أدبنا العربي القديم وتاريخه بالبحث والاستقصاء"[21]؛ وهي دعوة صريحة منه

لإخضاع الموروث العربي القديم لمنهج العقل والمنطق، والتسليم لِما وافقهما، وردِّ ونفي كلّ ما عارضهما، تصور كان سببا لتُفتَح عليه سهام نقد كثير، وخاصة "أنَّ المرحوم بالغ كثيرا، حتى بات شكه هدما وعصبية قبل أن يكون علما وموضوعية، ولو امتدّ به العمر إلى تسعينات القرن العشرين، لعدّل آراءه أو ربّما نقضها بسبب الاكتشافات الأثرية من جهة والعثور على مخطوطات بالغة القيمة وتحقيقها من جهة أخرى"[22].

ومهما اختلفت الآراء وتعددت يبقى هاجس الإنسان الأول دوما البحث عن الحقيقة لا غير، والزمن كفيل ليكشف عن حقيقة بعض الشكوك التي ظلت تساور فكر النقاد حول مسألة الشعر الجاهلي، وما الردود التي وُجهت لطه حسين وكتابه العصر الجاهلي، لخير دليل على اقتناع الأدباء والنقاد بالحقيقة الكامنة في الشعر الجاهلي المعلنة والخفيّة، ومن بعض هذه الدراسات نذكر: راية القرآن لمحمد صادق الرافعي، -محاضرات في بيان الأخطاء العلمية والتاريخية التي اشتمل عليه كتاب في العصر الجاهلي لمحمد الخضري، -نقض كتاب في الشعر الجاهلي لمحمد الخضر حسين، - نقد كتاب الشعر الجاهلي، لمحمد فريد وجدي، - الشهاب الراصد لمحمد لطفي جمعة، - النقد التحليلي لكتاب في الأدب الجاهلي، لمحمد أحمد مغراوي.

وقد حملت ثنايا معظم هذه الكتب نقدا للقضايا المنهجية والدينية واللغوية والتاريخية، وبعض القضايا النقدية التي جاءت في كتاب طه حسين، غير أنّ الموضوع الأكبر الذي أجمعت عليه معظم هذه الدراسات : قضية مساس طه حسين بحقيقة الشعر الجاهلي وأصوله الموغلة في التاريخ، وفي ذلك يتساءل محمد الخضر حسين عن الثورة التي أثارها كتاب في الشعر الجاهلي فيقول:"هل هي ثورة أدبية خالصة أم هي ثورة تضع رأسها تحت راية الأدب، وتُكنُّ في صدرها ما لا يعلم تأويله إلا الله ؟"[23]؛ في إشارة للبعد الخفي والغير معلن لطه حسين، على الرغم من أنَّ الشك الذي ساوره عندما أقبل على دراسة الشعر الجاهلي يختلف بكثير عن الشك الذي إنتاب وأحاط نُقَّاد الشعر، كون هؤلاء لم يشككوا في حقيقة الشعر، بقدر ما شككوا في نسب بعض رواياته، فأنكروا أبيات على شاعر، وألحقوا أخرى بآخر، وقد نتساءل: ماذا يمكن أن يحمل الشك من أثر على نظام القصيدة؟ وفي الجواب : أنّه لا يمكن بأي حال أن تكون القصيدة العربية الجاهلية التي نتدارسها اليوم وليدة طفرة، أو موقف، أو إدعاء، أو اختراع، غير أنَّ أمر الشك في نسبة بعض أبياتها لشاعر دون آخر وارد لا ريب فيه، في ظل كل الظروف التي رافقت الشعر وروايته، لذلك وجب الاقرار أنَّ القصيدة العربية الجاهلية بقيت محافظة على نظام عام وصارم أملته طبيعة الشعر الجاهلي.

3. وحدة القصيدة ونثر المنظوم :

يرسو الأثر الأدبي على صورة معينة تحدد معالم شكله، فيضمن لنفسه وجودا قانونيا قبل أن يتدارسه الدارسون، لذلك اكتست ثنائية الشكل والموضوع حيزا مهمّا، فلا موضوع بلا شكل، ولا شكل

مفتقر لموضوع، لذلك كانت القصيدة الجاهلية بشكلها وموضوعاتها نِتاج صنعة وعمل، ونظم، على غرار ما نلحظ في "حديث بن طباطبا (ت 322ه) في "عيار الشعر" عن بناء القصيدة تحت عنوان صناعة الشعر، في حين خصّ أبو هلال العسكري (ت395) كتابه "الصناعتين" بقسم عنونه بـ:"معرفة صنعة الكلام"، وضمّن بن رشيق(ت 456ه) "عمدته" بفصل سماه: "عمل الشعر وشحذ القريحة"[24] وإن دَأَبَ نَقدُنا القديم على استعمال هذه المصطلحات، فمن باب حديثه عن بنية القصيدة كنص تَشَكَل فأحاطه موضوع صنع دلالة معينة نحو وحدة جامعة، هي القصيدة العمودية، فكيف لنثر المنظوم منها أن يُعاود ربطها وحبكها بما توافق ومقاصدها؟

وخاصة أنّ القصيدة العربية القديمة وسمت وجودها باعتبارها: "ذلك النوع من التأليف الذي يتعارض مع المؤلفات العلمية بأن يجعل المتعة لا الحقيقة هدفه المباشر"[25]: وإن ألبسها كولردج (Samuel Taylor Coleridge) أكثر مما يمكن أن تستوعبه، فقد ضَمَنَ لها من جهة أخرى هدفا مباشرا يلامس المتعة التي تشد القارئ، وهو يتوخى دلالة معينة لتصاميم هذا الهيكل وما حواه وتضمنه، كأنّه صرح مشيد تماسكت دعائمه بعضا ببعض، فكانت "القصيدة بناءً يتركب من العناصر والقوى التي تتضافر على نحو يتم فيه تكامل المعاني الشعرية، المتبلورة في حقائق لغوية، فالعالم الذي تتألف منه القصيدة عالم متجانس تتلاقى أفكاره، وتتعاقب في حركة مطردة"[26] متتابعة، فتصنع لنفسها وجودا ينتهي عند المعنى الذي يرومه الشاعر أو يتعداه، قد تعجز معارك نثر المنظوم أن تضمنه لهذه القصيدة وإن توسلت لسياقاتها المختلفة.

1.3 السياق ونثر المنظوم:

يكتسي النص الشعري الجاهلي خصوصية معينة تجعله في منأى عن الدراسات النقدية السياقية والنسقيّة، التي قد لا تتوافق في مواطن كثيرة مع هذا الإرث البشري العربي، عندما تعكف على مساءلته بأدوات جديدة عليه، هي في الحقيقة وليدة فكر غربي يختلف كل الاختلاف عن تصور العربي القديم، لكن تعميم الأمر وقبوله كما هو فيه من الإجحاف الذي يُنكر دور بعض هذه المناهج في القبض على بعض المسائل النقدية وتفسيرها وفق كل سياق ونسق، على غرار قضية الوحدة في القصيدة الجاهلية، ولعلّ أنّ في حِرصِ النقد السياقي في تعامله مع النص الشعري بعيدا عن النص ما يبرره، فهو لا يغوص في النص لينثره، ولا ليعيد ترتيبه وتأليفه، ولكن يحاول استنباط فكرة عن التجربة الشعرية.

ونجد من النقّاد والدارسين من يُقبل على العمل الفني الشعري ويسيء فهمه، عندما يعكف على استنباط قراءات كيفية مزاجية، "فلا يتذوقون القصيدة من حيث هي شعر تذوقا مباشرا، ولكنّهم يترجمونها إن صحّ التعبير نثرا أولا، ثم يفهمونها ويتذوقونها، ويحكمون عليها أخيرا من خلال هذا النثر"[27]: ناهيك أنَّ الذوق المؤسس على ترجمات للغة الشعر، قد لا يلامس في مرات كثيرة

حقيقة مقاصد الشاعر الخفيّة الذي كثيرا ما يجنح للخيال، كما أنّ نقد القصيدة اشتغالا على هذه المقطوعات النثرية فيه من الصعوبة التي تعجز عن إدراك وحدة القصيدة من حيث هي نص متماسك، وفي السياق نفسه يعلق عز الدين اسماعيل على محاولات استنباط الأحكام النقدية من الترجمات النثرية للشعر، بناءً على "معاملة القصيدة كما لو كانت منقسمة إلى عبارات نثرية مكتفية بذاتها، وقائمة وحدها من جهة، وإلى قطعة موسيقية خاصة من جهة أخرى، بإشاعة السخافات والتجارب التي تكشف عن الجهل الفاضح بأمور الشعر"[28]، لأنّ الفصل بين لغته وموسيقاه هي فصل بين جسد وروح، لا يمكن أن يوجد غير نقد عاجز كل العجز، أن يلامس القصيدة من حيث هي كلٌّ متكامل.

2.3 الدلالة ونثر المنظوم:

إنّ آلية تشكل الدلالة للوقوف على كنه النص الشعري هي غوص في مستوياته المختلفة، "كما أنّ البحث عن المعنى الشعري على أنه مستوى من مستويين يقوم عليهما البناء الجمالي للشعر وراء فكرة حل المنظوم قديما، وقد احتذاه بالفعل عدد من الباحثين،لم يروا بأسا في أن يُقرأ الشعر بلغة النثر"[29]،فلو نثرنا مثلا البيتين الأولين من معلقة امرئ القيس:

قِفَا نَبكِي مِنْ ذِكرَى حَبيبٍ ومَنزِلِ بِسَقْطِ اللِّوَى بَيْنَ الدَّخُولِ فحومل (1)

فتُوضِحَ فَالمقرَاةِ لَمْ يَعفُ رَسمُهَا لِمَا نَسَجَتهَا مِنْ جَنُوبٍ وَشَمأَلِ (2)

نخلص للقطعة النثرية التالية: (قفا وأسعداني على البكاء عند تذكري حبيبا فارقته،ومنزلا خرجت منه بمنقطع الرمل بين موضعي الدخول وحومل وفي منطقة سَقط، عندما لم تشأ الرياح أن تمحو معالم منطقتي المقراة وتوضح)"[30] ، ما يلاحظ في هذه المقطوعة النثرية أنها لم تراعي مبدأ استقلال البيت بمعناه، فتعدى معنى البيت الأول نحو البيت الثاني واستقرا الاثنان على معنى واحد هو البكاء على الديار البالية وتذكر حال أهلها، سبب لتعزيز القول بوحدة القصيدة وتماسكها، نتيجة محاولات هؤلاء حَلَّ جزئياتها وتمثلها نثرا، ليس ترجمة للألفاظ بقدر ما هي ترجمة للمعاني وإعادة صياغتها في قالب نثري، فما تلبث هذه الصياغة النثرية إلا لتُحكم وتشدَّ الربط والسبك بين مختلف جزئيات وموضوعات القصيدة نحو منحى تتابع الأفكار وتدافعها ، ومن جهة أخرى قد تُقوّض فكرة حل المنظوم كل جزئيات القصيدة فتتراءى موضوعات وتغيب أخرى، وتلك بوادر تفكك لم يكن ليَعيها الشاعر الجاهلي.

كثيرا ما دأبت الموازنة بين الشعراء في مدى قدرة كل شاعر على تخير الألفاظ وحسن رصفها، كونها تصنع الفرق وتختصر قيمة التجربة الشعرية، على غرار ما نلحظ عند طه حسين عندما يُعلّقُ على الألفاظ التي تخيرها البحتري في قصائده فيقول: "تجدون جمالا يرجع إلى حسن اختيار الألفاظ، وإلى الملائمة فيها بين الرقة والجزالة والمتانة، أما المعاني فهي عادية مألوفة –وينتهي

ليتساءل -:أكان شعر البحتري كُلّه كهذا الشعر، يَخدعُ بالألفاظ وجمالها وحسن اختيارها، وبعض هذه الأنواع البديعية؟"[31]؛ وفي الجواب عنه وعن غيره ممن لخَّصُوا واقتصروا التجربة الشعرية في مدى حُسن تخيّر الألفاظ، نقول: خُذُوا كُلَّ ما يمكن أن يكون جميلا قويا متجانسا من الألفاظ، فهل كنتم لتصنعوا شعرا؟، وهذا التصور ما كان ليأتي سوى ليُبرر أن الدارس متى حلّ المنظوم نثرا وقبض على ألفاظه فقد فهِم الشعر ومآلات الشاعر، والحقيقة أن التجربة الشعرية أكبر من تختزلها ألفاظ مخيّرة.

ونلحظ مقاربة كبيرة فيما انتهى إليه ابن طباطبا- الذي رأى أنّ الشاعر إذا أراد بناء قصيدة، مخّض المعنى الذي بنى الشعر عليه في فكره نثرا، ثم تخير الألفاظ التي يلبسها لهذا المعنى"[32]–وبين أصحاب نثر المنظوم من الشعر، للبحث عن المعنى الذي خلُص إليه النظم، كأنّنا إزاء معادلة ترسُم ترددا مُتَّزِنا ذهابا وإيابا، من المعنى نحو القصيدة ومن القصيدة نحو المعنى، فلا يغدو حلُّ المنظوم من الشعر غير الوجه الآخر المقابل لعملية نظم الشعر، والحاضن لفكرة وحدة المعنى، التي تضمن وحدة القصيدة كلما سرنا عكسا من القصيدة ونثرها نحو المعنى نفسه، وإن ساهمت فكرة حلّ المنظوم في الكشف عن التفكك داخل القصيدة أحيانا، فقد تركت للقارئ أحيانا أخرى فرصة تتبع مساهمتها في الكشف عن أساور الإرتباط والوحدة التي جمعت القصيدة وموضوعاتها.

4. خاتمة:

تقاسمت قضية الوحدة في القصيدة الجاهلية وتماسكها عدة منعطفات أبانت في مرات كثيرة عن جدل أرجح القصيدة بين التفكك والوحدة،على غرار ما أفرزته رواية الشعر الجاهلي وما صاحبها من شجون حديث وضع الشعر الجاهلي في خانة الاتهام، بعدما طفت للأفق مقولات تروم نثره لفهمه وتمثل وحدته التي تأرجحت بين رواية الشعر ونثر المنظوم. ومن خلال محاورة هذا البحث خلصنا للنتائج التالية:

- تؤكد الدراسات التاريخية أنّ هناك ذأب مسلوك في تقاليد بنية القصيدة الجاهلية نجم عن إرث موغل في القِدَم.
- اكتست القصيدة الجاهلية في مرحلة ما وجودا قانونيا لا يقبل المعارضة.
- ساهمت الرواية في شيوع الشعر العربي وبسطه، فكانت علما له أهله وخاصته.
- أخذ الراوي على عاتقه مهمة السكرتير العلمي الذي يسمع يدون ويحفظ، يسأل ويُقَفِي، ما جعله يتدخل بقصد أو بغير قصد في نظم القصيدة.
- اضطراب بعض روايات الشعر ناجم من اعتمادها ثلاثية السماع والحفظ والكتابة.
- صاحبت رواية الشعر الجاهلي حملة تشكيك في مصادره ونسبه، وبلغت أوجها في العصر الحديث، وصلت حدَّ نفي جزء منه وردِّه.

- لم يتوانى سلطان الشك من الإحاطة بالجوانب السياقية إلاَّ وشكك فيها، ما جعل نظامها الخارجي يتهاوى مرات كثيرة تحت مبدأ اللايقين.

- لا يمكن أن تكون القصيدة الجاهلية وليدة طفرة أو ادعاء، ولا ريب أن يحاورها الشك.

- تأسست فكرة حل المنظوم من الشعر على مبدأ تسهيل حفظه والقبض على معانيه.

- تأرجحت فكرة حل المنظوم بين القبول الذي يروم البحث عن مقاصد الشاعر وتمثلها، وبين الردِّ الذي يراها محاولة بائسة لطمس لغة الشعر.

- كثيرا ما ساهم حل المنظوم في شد وصال القصيدة نتيجة تتَبُع المعنى في منحى تدافع الأفكار.

- في مقاربة نظم الشعر ونثر المنظوم ،تتراءى وحدة تعمل ضمن القصيدة تسري بالمعنى من المنثور نحو المنظوم، ومن القصيدة نحو فهم المعنى.

الهوامش:

[1] جون كوين (1993) بناء لغة الشعر، تر:أحمد درويش، ط03، دار المعارف، القاهرة، ص: 18

[2] محمد بن سلام بن عبد الله الجمحي (د.س.ن)، طبقات فحول الشعراء، تح محمود محمد شاكر،(دط) ، مطبعة المدني، جدة، ص:24

[3] عبد الإله الصائغ، (1999)،الأدب الجاهلي وبلاغة الخطاب، ط01، دار الفكر المعاصر ، صنعاء، ص: 150

[4] امرؤ القيس، (2000)، الديوان،شرح أبي سعيد السكري، تح : أنورعليان أبو سويلم- محمد علي الشوابكة ط01، مركز زايد للتراث والتاريخ، الامارات، ص:29

[5] شوقي ضيف، ،(د.س.ن)، تاريخ الأدب العربي –العصر الجاهلي ط13، دار المعارف ، القاهرة، ص: 142

[6] حسن السندوبي، (1990)، شرح ديوان امرئ القيس، ط01، دار إحياء العلوم، بيروت، ص:48.

[7] نفسه، ص :164-165

[8] الزوزني أبو عبد الله الحسين، (1975)، شرح المعلقات السبع، ط05، دار المعارف، بيروت، ص:12

[9] حازم القرطاجني أبو الحسن حازم بن محمد(1986)، منهاج البلغاء وسراج الأدباء ،تح : محمد حبيب بن -خوجة، (ط03)،دار الغرب الأسلامي ، بيروت، ص: 314.

[10] ريتا عوض، (1992)، بنية القصيدة الجاهلية، الصورة الشعرية لدى امرئ القيس، ط01دار الآداب، بيروت، ص:10.

[11] شوقي ضيف، تاريخ الأدب العربي- العصر الجاهلي- ص 224.

[12] نفسه، ص:141

[13] عبد الإله الصائغ، الأدب الجاهلي وبلاغة الخطاب، ص 175

[14] ينظر نفسه، ص :150

[15] شوقي ضيف، تاريخ الأدب العربي- العصر الجاهلي، ص 143.

[16] نفسه ،ص 143.

[17] نفسه ،ص 143.

[18] نفسه ،ص 143.

[19] عبد الإله الصائغ ، الأدب الجاهلي وبلاغة الخطاب، ص: 174.

[20] طه حسين،(1997)، في الشعر الجاهلي، (دط)، دار المعارف،تونس ، ص21.

[21] نفسه، ص23.

[22] عبد الإله الصائغ، الأدب الجاهلي وبلاغة الخطاب، ص: 174-175.

[23] محمد الخضر حسين،، (د.س.ن) نقض كتاب في الشعر الجاهلي(د.ط)، المكتبة العلمية، بيروت، ص: 15.

[24]ينظر يوسف حسين بكار،(د.س.ن) بناء القصيدة في النقد العربي القديم في ضوء النقد الحديث، ط02 دار الأندلس، بيروت، ص45.

[25] ديفد ريتش،(د.س.ن)، مناهج النقد الأدبي، تر/ تح: محمد يوسف نجيم، ط01 دار صادر للطباعة والنشر، - لبنان، ص: 158.

[26] لطفي عبد البديع،(1962)، التكامل في القصيدة العربية بحث في كتاب : إلى طه حسين في عيد ميلاده السبعين، ط01 دار المعارف، القاهرة، ص: 169.

[27] عز الدين اسماعيل،(1974)، الأسس الجمالية في النقد العربي، -عرض وتفسير ومقارنة – ط03، دار الفكر العربي، القاهرة، ص: 352.

[28] فضل السيد،(د.س.ن) نقد القصيدة العربية –مدخل لدراسة ميراث الرواد، (د.ط)، دار المعارف، الاسكندرية، ص: 21نظر نفسه، ص: 352-353.

[29] فضل السيد،(د.س.ن) نقد القصيدة العربية –مدخل لدراسة ميراث الرواد، (د.ط)، دار المعارف، الاسكندرية، ص: 21.

[30] ينظر الزوزني أبو عبد الله الحسين، (1975)، شرح المعلقات السبع، ص:11.

[31] طه حسين، (2012)، من حديث الشعر والنثر، (د.ط)، مؤسسة هنداوي للتعليم والثقافة، مصر ، ص:122.

[32] ينظر ابن طباطبا أبو الحسن محمد بن أحمد،(2005)، عيار الشعر، تح: عباس عبد الساتر، ط02، دار الكتب - العلمية، بيروت، ص:11 32.